الفصل الثانى

الأسرة القـــروية

يحتل موضوع الأسرة مكانا هاما فى التراث السوسيولوجى . ولايتضح ذلك من الأعمال العلمية العديدة التى ألفت فى هذا الموضوع فحسب (١) ، وانما يتضح أيضا من الوضع الذى يحتله هـــذا الموضـــوع من الأنســـاق السوسيولوجية النظرية ، أو الكتب المدرسية العامة التى تعرض للمشكلات السوسيولوجية والاثنوجرافية . وتأتى الأهمية الخاصة لهذا الموضوع من اهمية الأسرة كمؤسسة أولية أو جماعة بالنسبة لسائر المؤسسات والجماعات الموجودة فى المجتمع . وكما هو الشأن فى علم الاجتماع الصناعى أو المهنى ، فان أغلب الخطط السوسيولوجية المعنية بالوحدات الكبرى ترى فى علـــم الاجتماع الأسرى فرعا علميا مستقلا له موضوعه الخاص ، ومفهوماتـــــه الخاصة ، ومنهجيته الخاصة . وهو فضلا عن ذلك ، ميدان غنى بالتراث الوصفى المقارن (٢) (ذو طابع اثنولوجى بصفة أساسية) ، كما أنه يتوفـــر على بناء مستقر لنظرية متطورة وقضايا عامة تتصل بميادين عديدة . وتحت هذه الظروف فان المرء يجد نفسه ميلا الى أن يحيل القارىء الى أعمـــال متخصصة ، تتجاوز مشكلات الأسرة فى حد ذاتها ، وتولى اهتمامها بدلا من ذلك الى الدراسة المفصلة لطبيعة الأسرة القروية . واذا كنا بصدد مناقشة الملامح الخاصة للأسرة القروية ، فاننا لانستطيع أن نغض الطرف عن المشكلات التى تتصل بموضوع الاسرة بوجة عام وانما يتعين علينا ان نشير الى تلك

(*) هذا الفصل مترجم من المصدر التالى :

Boguslaw Galeski; Basic Concepts of rural Sociology, Manchester-University Press, London, 1972 : Chap., 3; «The peasant-Family», pp. 54-75.

الملامح العامة التى تشترك فيها كل أنماط الأسرة ، أو على الأقل الى تلك العناوين التى تندرج على نحو أو آخر تحت مصطلح « الأسرة » . والحقيقة ان التحليلات المتصلة بالأسرة القروية تختلف عن التحليلات الخاصة — بمهنة أو منشأة صناعية على سبيل المثال — فى أنها تمدنا بأساس عام للملاحظات والحقائق الخاصة بموضوع الأسرة بوجه عام . وعندما يتطرق أغلب الكتاب الى الحديث عن التغيرات التى تطرأ على الأسرة فى الوقت الحاضر فانهم يتخذون الأسرة القروية كاطار مرجعى لهم . ولهذا السبب يصبح من الأمور الحيوية أن نعرض بايجاز لعدد من العوامل العامة التى اتفق عليها السوسيولوجيون فيما يتصل بموضوع الأسرة .

اولا : مفهومات اولية : تعريف أنماط الأسرة ووظائفها

١ — يعرف العلماء الأسرة عادة اما بأنها مؤسسة (٣) ، أو فى أغلب الأحيان ، بأنها جماعة اجتماعية . وبينما نجد أن هناك عددا من الاختلافات فى ثنايا هذا التعريف وغيره من التعريفات ، فان هناك اتفاقا عاما حول حقيقة مؤداها أن الأسرة هى العلاقات التى تأتى من خلال الزواج والقرابة ، أو التبنى ، كما يضاف الى ذلك عادة ، أن الأعضاء يعيشون معا ويتعاونون فيما بينهم حول عمل مشترك تفرضه الضرورة الاجتماعية ويتحقق لهم فيه توزيع للأدوار والمهام (٤) . وقد يلاحظ البعض أن هذا التعريف لايبدو دقيقا كل الدقة . وفى لغة الحياة اليومية نجد أن كلمة « أسرة » تشير عادة الى جماعة من الأشخاص الذين يرتبطون معا بروابط القرابة ، بغض النظر عما اذا كانوا يعيشون معا فى بيت واحد أم لا . من ذلك مثلا ، الخؤول والخالات أو الأعمام والعمات (وزوجاتهم وأزواجهن) فانهم يندرجون ضمن الأسرة عادة ، على الرغم من أنهم لايقيمون مع الشخص الذى يوجد فى قلب محيط الأسرة (٥) . وعندما يعود الشخص الى الوراء ليتتبع شجرة النسب الخاصة به (فى خط الأب أو فى خط الأم) ، فسوف نرى أن كلمة « الأسرة » كما هو متعارف عليها فى لغة الحياة اليومية لايمكن قبولها فى عمل علمى . ولذلك فالأفضل أن نتحدث عن روابط قرابة وثيقة أو متباعدة (من منظور موضوعى أو ذاتى) ، أو نتحدث عن روابط أسرية قوية أو ضعيفة تتصف بالاتساع أو الضيق سواء كان ذلك يتقرر على أسس من الملامح الموضوعية

أو من خلال الشعور بالروابط القوية . وفى هذه الدراسة يشمل مفهوم « الأسرة » الأشخاص الذين يرتبطون بأقوى روابط القرابة الدموية (كالوالدين والأطفال) ، الذين يعيشون معا ، ويشتركون عادة فى ميزانية أسرة مشتركة .

٢ — لن نتعرض فى هذا المقام للمبدأ المتبع فى تصنيف انماط الأسرة طبقا لعدد الأشخاص الذين يعشون فى اطار العلاقة الزواجية بأنواعها المختلفة (كالزواج الأحادى ، او المتعدد ، أو الزواج القائم على تعدد الأزواج) ، وطبقا لاختيار الزوجة (داخلى او خارجى) . كما أنه يمكن تصنيف انماط الزواج على أساس الشخص الذى يقرر اختيار القرين (طرفا العلاقة الزوجة انفسهم أو والديهم) ، أو يمكن تصنيفه وفقا للدوافع المتعارف عليها أو الزواج بدافع الحب) . ان الموضوع الخاص بتدرج الهيبة والسلطة فى أمور الزواج (كالزواج لأسباب اقتصادية ، أو الزواج بدافع الهيبة والمنزلة ، الأسرة — كالأسر الأبوية او الأسر الاموية من جهة ، والاسر التى تقوم على علاقات المساواة بين طرفى العلاقة الزوجية من جهة أخرى — سوف يكون محلا للتناول فى هذا السياق . والملاحظ ان بناء السلطة فى الأسرة يتضمن عادة شكل الميراث (كوراثة الاسم ، والممتلكات ، والوضع الاجتماعى) والقواعد التى تحكم روابط القرابة الدموية : ابوية كانت ام امومية . يضاف الى ذلك ايضا المبدأ المتعارف عليه فى المجتمع حول اقامة الزوجين : وما اذا كان الزوجان المتزوجان حديثا يقيمان فى منزل عائلة الزوج (كالزواج القائم على الاقامة عند والدى الزوج) أو فى منزل عائلة الزوجة (كالزواج القائم على الأقامة . عند والدى الزوجة) .

وفضلا عن المبادىء المتبعة فى تصنيف الأسرة على نحو ما اسلفنا ، فقد يكون من المناسب أن نسوق تصنيفا للأسرة وفقا للغرض من الزواج : وما اذا كان الزواج ينبع من مصلحة الاسرة ، أو من رغبة الأفراد انفسهم فى تحقيق السعادة الشخصية . ولعل الاختلافات فى هذا الصدد تتفق مع التصنيف السابق للأسرة وفقا للدوافع التى تحكم اختيار القرين . وقد يكون من الضرورى أيضا أن نميز فى هذا السياق بين انماط الأسرة وفقا لأنواع

العلاقات التى تقيمها مع الأقارب البعيدين والتى عادة ما توصف بالعادات الاجتماعية .

وبوسعنا أن نسوق المزيد من الأسس التى يتم فى ضوئها وضع تصنيف لأنماط الأسرة . غير أن ذلك يعتمد فى حقيقة الأمر على الغرض الذى يتوخاه الباحث : من ذلك مثلا ، أنه يمكن تصنيف أنماط الأسرة وفقا للطبقة الاجتماعية أو الأصل السلالى الذى تنتمى اليه . وعلى أية حال ، فان أنماط التصنيف على نحو ماذكرنا ، هى أهم الأنماط المعروفة والمستخدمة فى تمييز خصائص الأسرة ، وما يطرأ عليها من تغيرات ، كما أنها تشكل فيما بينها أوسع الأطر التى يستعين بها الباحثون انتشارا فى هذا المجال . كما أن العناصر التى يشتمل عليها مثل هذا التنميط تمثل فى الوقت نفسه الخصائص المميزة للفروق العامة بين الأسرة فى الطبقة العمالية والأسرة القروية على سبيل المثال . وبغض النظر عن اجراء نوع من الترتيب أو التدريج لأنماط الأسرة فى ضوء هذا الاطار المتبع فى التصنيف ، فان هناك عنصرا هاما لتحديد خصائص الأسرة الا وهى الوظائف التى تضطلع بها .

٣ ــ ومن الثابت فى التراث السوسيولوجى أن وظائف الأسرة أيضا تختلف فيما بينها على نحو أو آخر . وعادة ما يأتى فى هذا المقام ذكر الوظيفة البيولوجية للزواج كوسيلة اجتماعية لتنظيم السلوك الجنسى والانجاب . وتتضمن وظائف الأسرة أيضا وظائف اقتصادية معينة تقوم بها الأسرة من أجل تأمين الحياة بالنسبة لأعضائها الذين لايمكنهم تحقيق ذلك من خلال اعتمادهم على أنفسهم (وعلى وجه الخصوص الأطفال الصغار والشيوخ المسنين) . ومن الوظائف الاقتصادية الأخرى للأسرة القيام بأعباء الحياة المنزلية وادارة شئون البيت . ويمكن أن نذكر عددا من الوظائف الاقتصادية والاجتماعية للأسرة والتى تشمل ما يلى :

(أ) التأمين (وذلك بتقديم العون المادى وأنواع الدعم الأخرى للأفراد فى حالات الفشل أو الكوارث ــ وغالبا ما تؤدى العائلة القروية الممتدة هذه الوظيفة على أحسن وجه) .

(ب) تناقل التراث (بنوعيه المادى والثقافى) .

(ج) تقديم التسهيلات التى يبدأ بها الفرد حياته والتى تحكم منذ البداية وضعه بالنسبة لترتيب التدرج الاجتماعى ، الذى يقوم على أساس الدخل ، والهيبة ، والسلطة .

ويشارك فى أداء هذه الوظائف أيضا بعض الأقارب البعيدين للأسرة أحيانا . وفضلا عن ذلك فان الأسرة تؤدى وظائف تعليمية الى درجة معينة : من ذلك مثلا أنها تقوم بعملية التنشئة الاجتماعية للأطفال ، وتنظيم عملية التربية الخاصة بهم ، واكسابهم المعرفة التى يحتاجونها فى حياتهم ، خصوصا فيما يتعلق بالمعايير والقيم المتعارف عليها فى المجتمع المحلى . هذا فضلا عن أن الأسرة تقوم باعدادهم وتهيئتهم للانخراط فى المؤسسات والجماعات الاجتماعية .

وترتبط الوظائف الثقافية للأسرة بكل ما سبق . فالنشاط الاقتصادى للعائلة كما يتمثل فى فلاحة الأرض ليس مجالا لانتاج المنتجات ـ بنوعيها المادى والثقافى ـ فحسب ، وانما هو الى جانب ذلك مجال لاستهلاك هذه المنتجات . كما أن تنظيم عملية قضاء وقت الفراغ ، والتسلية بالنسبة لأعضاء الأسرة داخل المنزل وخارجه ، يعتبر أيضا من مظاهر الحياة العائلية . وأخيرا فان الاسرة توفر لأبنائها زادا معنويا ووجدانيا يقيهم من الشعور بالوحدة والعزلة الاجتماعية ، كما أنها فضلا عن ذلك تعمل على اشباع حاجاتهم فى السعادة الشخصية ، والتقدير الاجتماعى ، والفهم ، والدفء . وكل هذه الوظائف تؤديها الأسرة على نحو أو آخر ، وهى لا شك وظائف على درجة من الأهمية وخاصة فى وقتنا الحاضر .

٤ ـ وعندما نتناول الوظائف التى تؤديها الأسرة تناولا وصفيا ، فاننا نستطيع من خلال ذلك أيضا أن نضع بعض الأسس لتصنيف أنماطها . فضلا عن أن ذلك ييسر علينا عملية المقارنة بين خصائص الأسرة فى مختلف التجمعات ، أو المجتمعات المحلية ، أو الثقافات ، كما يتيح لنا فرصة الوقوف على التغيرات التى تطرأ على نمط الأسرة فى داخل هذه المجتمعات المحلية أو المجتمع ككل .

وقد يبدو مفيدا من الناحية التحليلية أن نقدم من بين هذه المفهومات الأولية التى تتصل بموضوع الأسرة ، تباين المراحل المختلفة او الدورات المختلفة لحياة الأسرة . وهو ما يطلق عليه « الديناميكية الصغيرة » ، اى الدراسة المحدودة للتغير تمييزا لها عن التغير التاريخى الذى يطرأ على المجتمع ككل . ومن ثم يمكننا أن نميز بين الفترة التى يكون فيها الزوجان فى بداية عهدهما بالزواج ولم ينجبا أطفالا بعد ، والفترة التى تضم فيها الأسرة أطفالا صغارا الى جانب الزوجين (وفيما يتصل بهذا الموضوع فانه يتعين علينا أن نميز بين الفترة التى يكون الأطفال فيها غير قادرين على القيام بأى عمل من الأعمال ، والفترة التى يستطيعون فيها اداء بعض المهام والقيام بأعمال معينة فى الحقل) ، والفترة التى يستطيع الأبناء فيها الاعتماد على انفسهم . وكل مرحلة من هذه المراحل من حياة الأسرة لها وظائفها العائلية التى تناسبها ، غير أن هذه الوظائف تبدو أكثر شمولا خلال الفترة التى تكون فيها العائلة القروية وحدة تتألف من الوالدين واطفالهما الذين يعولونهم .

ثانيا : المحددات الاجتماعية للأسرة القروية

اننا لو وضعنا فى الاعتبار كل هذه المحكات التى تستخدم فى تمييز الانماط المختلفة للأسرة ، او تعريف وظائفها ، فسوف نرى ان الأسرة القروية تبدو أكثر تقليدية عن غيرها من الأسر . اذ انها أولا وقبل كل شىء ، أسرة اكبر من الناحية العددية . فقد بلغ متوسط عدد أفراد الأسرة فى المدن البولندية عام ١٩٦٠ ، ٣٫٠٩ فردا ، وذلك فى مقابل ٣٫٨٦ فردا للأسرة فى المناطق الريفية (٦) . كما بلغ متوسط أفراد الأسرة الحضرية فى الولايات المتحدة فى عام ١٩٥٨ ، ٣٫٥ فردا ، والأسرة الريفية غير المشتغلة بالزراعة ٣٫٨٢ فردا ، أما الأسرة الريفية المشتغلة بالزراعة فقد بلغ متوسط عدد الأفراد فيها ٤٫٠٨ فردا (٧) . وفضلا عن ذلك فان الأسرة القروية التقليدية عادة ما تضم ثلاثة اجيال (٨) .

وفى بولندا نجد أن القطاعات التى لم تتأثر بعد بالتصنيع لا يزال نمط الأسرة التى تضم أجيالا ثلاثة موجودا بها حتى اليوم . ويقوم الجدان بتنظيم العمل الزراعى فى الحقل مع ابنائهم المتزوجين ، واحفادهم (وذلك

من حيث المبدأ على الأقل) . حيث يقيم الجدان مع أحد الأبناء ، أو بتحديد أكثر ، حيث يبقى أحد الأبناء مقيما فى منزل والديه بعد أن يتزوج . وتقودنا الظاهرة الأخيرة الى اثارة موضوع يتصل بأنماط من العلاقات تستحق ان نفرد لها مناقشة مستقلة . وتعرف القرية البولندية نمطا مألوفا من الزواج هو الزواج الأبوى الذى يقوم على تسلل الأنساب فى خط الذكور . أما من حيث الاقامة فان الزوجين يقيمان عقب زواجهما اما فى منزل أهل العريس أو فى منزل أهل العروس ، أو يقيمان عادة فى مسكن جديد . وفى المناطق الريفية ببولنـــدا يلاحظ أن الاختيار للزواج لايزال يتميز بكثير من سمات الزواج الداخلى ، أى من داخل اطار المجتمع المحلى القروى (٩) . كما ان الوالدين فى القرية البولندية لا يزالا يلعبان دورا بارزا فى مسألة اختيار القرين . وغالبا مـــا توضع المميزات الاقتصادية للزواج موضـــع الاعتبار ، ولايزال المبدأ الذى ينص على دفع المهر للأبناء عند زواجهم موجـــودا . كذلك تتميز الأسرة القروية بأنها أكثر ارتفاعا فى معـــدل المواليد . فقد بلغت نسبة المواليد فى بولندا (عام ١٩٦١) ١ر١١ لكـــل الف من السكان فى المدن ، وذلك فى مقابل ١ر١٥ فى القرى (١٠) . وتعتبر الأسرة القروية أكثر استقرارا ، فالطلاق بين القرويين أندر من بين غيرهم من أصحاب الثقافات الأخرى . كما ان تسلسل السلطة والهيبة فى كثير من العائلات القروية يوضح بجلاء ما تتسم به من خصائص أبوية . ولا تزال مصالح الأسرة ومصالح الأرض الزراعية تلعب دورا هاما فيما يتصل بأمور الزواج . والروابط التى تربط الأسرة بالأقارب البعيدين اكثر أهمية وأكثر استمرارا ، وهى غالبا ما تختلف عن أنماط العلاقات القرابية الموجودة فى البيئات الحضرية .

وتتنوع وظائف الأسرة القروية تنوعا كبيرا ، ومع ذلك فان الأسرة تقوم بأداء هذه الوظائف على نطاق واسع . وتقوم الأسرة القروية بممارسة نوع من النشاط الاقتصادى العائلى الذى يعتبر فى بعض الأحيان مشروعا تجاريا ، ومن ثم فانه يحقق وظيفة انتاجية هامة . الا انه نظرا لأن شبكة العلاقات التجارية مازالت شبكة متخلفة ، فانها لا تتيح الفرصة لمزيد من الوظائف الاقتصادية ذات النطاق الواسع على نحو ما يوجد بالمدن . ولنفس

الأسباب نجد أن الوظائف الثقافية للأسرة تحظى بقدر أعظم من الأهمية ، وذلك على أساس أن نمط الترويح الثقافى — بالمعنى الواسع للكلمة ، — يكون من النوع المتميز الذى تختص به الأسرة القروية . ونظرا لأهمية الوظائف الاقتصادية للأسرة ، فانها لا تتيح سوى قدر ضئيل من الوقت للاسترخاء والراحة فى ظل هذا النوع من النشاط الاقتصادى . وتؤدى الأسرة القروية وظيفة تعليمية شاملة من خلال تدريب الأطفال على العمل فى المزرعة ، وذلك أمر يختلف فى طبيعته عما يجرى فى الاسر غير القروية . ان السعادة الشخصية للأفراد فى الأسرة القروية أمر لا يمثل أهمية كبرى بالنسبة لهم ، وذلك نظرا لتوحدهم مع مصالح الأسرة الى درجة كبيرة (١١) . ومن ثم يتضح لنا بشكل عام من خلال استعراض الوظائف التى تؤديها الأسرة القروية ، أن تلك الأسرة تمثل جماعة متماسكة شديدة الترابط ، كما أنها تحدد الى حد كبير لأفرادها ادوارهم وأنماط سلوكهم فى عدد من المواقف يفوق ما تقوم به اى أنماط أخرى من الأسر . كما اتضح مما سبق ، أن الأسرة القروية تؤدى بعض وظائفها بطريقة وبنسب تختلف تمام الاختلاف عن سائر الأنماط الأخرى من الأسر .

وترجع الفروق بين نمط الأسرة القروية وغيره من الأنماط الأسرية الأخرى الى الروابط التى تربط الأسرة القروية بالمزرعة . اذ أن هذه الروابط تكشف عن شكل للاقتصاد العائلى الذى لا يقتصر على الزراعة وعمليات الانتاج الزراعى فحسب ، وانما يشتمل كذلك على انتاج انواع أخرى من السلع الاستهلاكية الأساسية . ونتيجة لذلك ، تصبح الأسرة القروية أقل اعتمادا على اسلوب تنظيم الانتاج فى المجتمع الكبير . ولو انها لم تعد — على أى حال — قادرة على تحقيق الاكتفاء الذاتى على نحو ما كان الأمر فى مجتمع ما قبل الصناعة . ولا تزال الأسرة القروية تتسم فى الوقت الحاضر بخصائص المشروع الذى يلعب فيه الأفراد دور فريق الانتاج . (ويتضمن ذلك قدرا من النمو فى نسق العلاقات بشكل يتلاءم مع جماعة من جماعات الانتاج) . ومن ثم فان الفلاح يصبح مديرا (أو منظما) أو مسئولا يمكنه تقويم الأفراد على أساس ادائهم فى عملية الانتاج . وباختصار ، تتحول المزرعة الى نسق من العلاقات القائمة على مبدأ تقسيم

العمل بشكل يضمن نجاح العمليات الانتاجية . وكل هذه الاختلافات التى تميز الأسرة القروية عن غيرها من الأسر على نحو ما ذكرنا فيما سبق ، انما ترجع أساسا الى طبيعة النشاطات الاقتصادية التى يقوم بها الفلاح كما ترجع أيضا والى حد كبير ، الى طبيعة الروابط التى تربطه بالمزرعة . تلك الروابط التى تعتبر مصدرا رئيسيا لتماسك الأسرة ، فضلا عن تحديد طبيعة الوظائف التى تؤديها .

وثمة سبب آخر وراء اختلاف نمط الأسرة القروية عما عداه من انماط الأسرة . وهو ارتباط الأسرة القروية الوثيق بالمجتمع المحلى . ذلك أن عددا من وظائفها الرئيسية ـ وخاصة الوظائف الاقتصادية والتربوية ، والثقافية ـ ينسجم ويتكامل مع أوجه النشاط المماثلة السائدة فى مجتمع القرية . كما أن الروابط القرابية القوية القائمة بين الأسر التى ينهض عليها المجتمع المحلى ، وروابط الجوار القوية ، والنسق المتشعب للعلاقات الاجتماعية ـ الاقتصادية ، ووجود عدد من المؤسسات بالقرية ، وغير ذلك من الملامح التى تجعل من المجتمع المحلى للقرية جماعة أولية ، فهذه العناصر جميعها بما تخلقه من ظروف بيئية خاصة تمكن الأسرة القروية من الاحتفاظ بوجودها واستمرارها مع احتفاظها بوظائفها الثقافية ، والتربوية الواضحة ، فضلا عن وظائفها فى « التأمين الاجتماعى » .

وقد يظن البعض أن كثيرا من خصائص الأسرة القروية قد جاءت كمحصلة لظروف الحياة فى المناطق الريفية : بما فى ذلك من تخلف فى وسائل الانتاج ، ونقص فى الخدمات والتسهيلات ، ونقص فى وسائل الاتصال .. الخ ولو أن هذه الظروف لم تنشأ لمجرد أن الانسان فى هذه المناطق الريفية يصادف صعوبات فى السيطرة على البيئة ، وانما جاءت كنتيجة لخصائص القرية كمجتمع محلى يفرز نسقا اجتماعيا يختلف فى طبيعته عن الأنساق الاجتماعية الموجودة فى المناطق الحضرية .

وايجازا لما سبق : فانه يمكن القول بأن أساس تميز الأسرة القروية يقوم على ارتكاز حياة تلك الأسرة على العمل الزراعى . وهذا الأساس هو

الذى تستمد منه الأسرة القروية ملامحها الخاصة ، التى يمكن أن نذكرها على النحو التالى :

١ — ان الأسرة القروية عبارة عن فريق للانتاج يقوم بالعمل فى اطار مشروع انتاجى صغير .

٢ — أنها أكثر استقلالا بكثير من غيرها من الأسر فيما يتعلق باشباع حاجات أعضائها . ويرجع ذلك الى طبيعة العمل الزراعى الذى تمارسه الأسرة .

٣ — أن مجال الوظائف التى تؤديها الأسرة الريفية أكثر شمولا ، كما أنها تؤدى تلك الوظائف بطريقة متصلة ومستمرة . ولذلك يرتبط الفرد القروى بالأسرة ارتباطا قويا لدرجة انه يذوب فيها ويخضع لها . كما أن الأسرة تكون على درجة عالية من التماسك ، وتعمل بشكل فعال على مقاومة كل عوامل التفكك .

٤ — أن الأسرة القروية تستمد من القرية كمجتمع محلى الدعم الذى يمكنها من اداء وظائفها المختلفة .

ثالثا : الأسرة والمزرعة

لقد عرضنا فيما سبق لعدد من الملاحظات التى توضح بشكل مجرد تميز الأسرة القروية . غير أن هذه الملاحظات يمكن أن تكون أكثر تحديدا وتشخيصا عندما نتبين المكانة التى تحتلها المزرعة فى حياة الأسرة . وانه ما لم يتم الكشف عن الروابط التى تربط الأسرة بالمزرعة على نحو دقيق ، وما لم نأخذ بوجهة النظر القائلة بأن ملامح الأنماط الأسرية تتحدد من خلال الأساليب المتبعة فى عملية الانتاج ، فانه يصبح من الصعب حينئذ أن نتبين كيف أن بعض الخصائص كالزواج الأحادى ، وتعدد الزوجات ، والنظام الأبوى ، والنظام الأموى تصدر عن أسلوب معين فى تنظيم الانتاج .

على أننا سوف نعتبر مسألة العلاقات بين نمط الأسرة وأسلوب

الانتاج قضية مسلما بها ننطلق بعدها الى الموضوع محل الاعتبار فى هذا السياق . ولكى نقدم تحليلا دقيقا وشاملا لمزرعة الأسرة ، فانه يتعين علينا أن نضع فى اعتبارنا عددا من المشكلات المتصلة بظروف نشأتها ووظائفها ، وذلك على النحو التالى :

١ ــ المشكلة الأولى هى تلك التى تتصل بموضوع اختيار القرين (شريك الزواج) . فكما رأينا فى موضـــع سابق ، أن الوالدين فى الأسرة القروية يلعبان دورا هاما فى مسألة اختيار القرين ، وانهما يضعان فى اعتبارهما مصالح الأسرة ومصالح المزرعة . والحقيقة هنا أن تكوين أسرة جديدة ينطوى على مشكلة ضمان الأساس اللازم لوجودها واستمرارها . ومعنى ذلك فى عرف الحياة القروية ان هذه الأسرة الجديدة لابد وأن تحصل على نصيب من الأرض الزراعية . اى انه يتعين على احد الوالدين أن يقتطع من أرضه جزءا لتأمين حياة هذه الأسرة . ولذلك يجب تسوية المشكلات الاقتصادية التى تثور عندئذ ، من حيث اى الوالدين سيعطى من أرضه وما هى مساحة الأرض التى تكفى لتأمين حياة هذه الأسرة الصغيرة وتضمن لها أسس البقاء ؟

وفى البلدان التى ظلت تأخذ بمبدأ عدم جواز تقسيم أرض المزرعة حتى الفترة السابقة على الحرب (ومنها مثلا اقليم بوزنان Poznan احد الأقاليم البولندية) ، كانت الأسرة الجديدة تظل مقيمة فى مزرعة أحد الوالدين، كما ان الاخوة والأخوات يسهمون فى دفع المهر . وفى مثل هذه الحالة يصبح القدر الذى يسهم به الطرف الآخر على درجة من الأهمية . وحيث يتعذر انتقال ملكية الأرض الزراعية ، اما بسبب قوانين الدولة ، او بسبب حقوق الميراث التى تضع قيودا على تقسيم المزرعة ، أو لأى أسباب أخرى ــ كنقص الأراضى الزراعية ــ فان تلك التساؤلات يمكن أن تطرح بشكل آخر . فمثلا ، يتعين فى مثل هذه الحالة العمل على زيادة القوى العاملة فى المزرعة وليس العمل على زيادة مساحتها . والملاحظ على اى حال أن بدء حياة اى أسرة قروية جديدة يحتم التوصل الى نوع من تسوية الأمور الاقتصادية من جانب اسرتى العريس والعروس . ومن ثم فان زواج أحد الأبناء فى الأسرة

القروية يشغل كافة افراد الأسرة ، كما انه لا بد أن تؤخذ فى الاعتبار الاعباء التى ستقع على كاهل الأسرة والمكاسب التى قد تجنيها من وراء الزواج . كما ان الأسرة لا تشغل فى أمور مادية فحسب ، وانما يشغلها فى نفس الوقت ما تتمتع به الأسرة من هيبة ومكانة فى المجتمع المحلى التى هى عضو فيه. أما من ناحية العلاقات بين المزرعة والوضع الطبقى للمزارع ، فنلاحظ أن ذلك يتوقف بدوره على الالتزام المادى (١٢) . ومن هنا فان الأسرة القروية تنظر الى موضوع اختيار القرين نظرة متوازنة يراعى فيها مصالح الطرفين ، أى مصالح أسرة العريس ومصالح اسرة العروس (١٣) .

وعندما يتزوج العروسان فانهما يحصلان من والديهما على نصيبهما من الأرض ، كما أنهما بدورهما يسلمانها الى أولادهما . فالمزرعة تنتقل من جيل الى جيل ، وذلك من خلال تحمل الأسرة لمسئولياتها فيما يتصل بتوريث الأبناء انصبتهم من الأرض . فالأسرة القروية الجديدة تتمثل منذ البداية مصالح المزرعة ومصالح العائلة معا . وعلى ذلك ، فان الاهتمام بمصلحة العائلة سيظل أمرا يحكم عملية اختيار القرين ، طالما أن هناك ربطا وثيقا بين المزرعة والعائلة .

وعلى كل حال ، فان الخطوط العريضة للعلاقة بين الأسرة والمزرعة كما عرضناها ، تتحقق بشكل ملموس فى الواقع وبدراجات متفاوتة حسب الأحوال . ويختلف الأمر بالنسبة للأسر الغنية عنه فى الأسر الفقيرة . اذ تكون العلاقة بين الأسرة والمزرعة اكثر ضعفا فى حالة اعتماد الأسرة بشكل اساسى او جزئى على العمل المأجور . كما يختلف الأمر ايضا فى حالات الأسر التى يغادرها الأبناء ، على الرغم من حصولهم على نصيبهم من ثروة الأسرة، او على دفعات مالية ، أو تكفلها بنفقات تعليمهم على الأقل . كما ان الوضع يختلف كذلك فى حالة وجود مزرعة مشتركة بين عدد من الأسر (وهو ما يتمثل فى شكل التعاونيات الانتاجية) ، على الرغم من أن الحاجة هنا ايضا الى اقتسام قطعة الأرض مع الزوجين المتزوجين حديثا تتضمن مراعاة مصالح الأسرة والاسر التى تشترك معا فى المزرعة ..

٢ ــ كما ان الروابط التى تربط الأسرة بالمزرعة ، والتى تبدو واضحة فى طريقة اختيار القرين ، يمكن أن تؤثر كذلك فى تحديد نوعية الاعمال والمهام التى يقوم بها الأبناء المتزوجون الذين يكونون أسرة جديدة . ولقد ذكرنا فيما سبق أن المزرعة هى مفتاح الحياة بالنسبة للأسرة القروية ، اى انها عنصر رئيسى بالنسبة لها . فالأرض التى يهبها الوالدان لأبنائهم المتزوجين حديثا تضمن لهم الاسس الضرورية للمعيشة ، فضلا عن انها تنتقل لأبنائهم بعد ذلك . وعندما يتسلم هذان الزوجان نصيبهما من الأرض ويكونان اسرة جديدة ، فانهما يتحملان بذلك مسئولية العمل على نقل هذه الأرض لأبنائهما . ويستمد الأبناء من مساحة الأرض ومن كمية الأدوات والمعدات الزراعية التى تنتقل اليهم ، فضلا عن الطرق التى يثبتون بها كفاءتهم فى اداء أعمالهم ، يستمدون من ذلك أسس الهيبة والمنزلة التى يحتلونها فى نفوس الآخرين .

تلك هى الاسس التى يقوم عليها التوحد والتطابق الكامل الذى نلاحظه بين الأسرة والمزرعة ، والتوحد بين مصالح الفرد ومصالح الأسرة . وعلى ذلك ، فان مصالح المزرعة ومصالح الأسرة هى التى تحدد للأسره القروية الجديدة كيفية أدائها للأعمال والمهام التى يجب عليها القيام بها .

ولاشك ان ذلك يؤدى الى ربط الوظائف الاقتصادية للأسرة القروية بوظائفها الانجابية . فالأبناء هم الذين يرثون المزرعة ، وفى نفس الوقت ، هم الذين يعملون فيها . وبحكم وراثتهم للمزرعة ، فانهم يعتبرون شركاء فى ملكيتها ، غير أن ذلك لا يتم ترجمته او التعبير عنه من خلال المشاركة فى تدرج السلطة فى الأسرة ، وذلك بسبب النمط الأبوى للعائلة القروية . ويتعين على المزروعة ان تكفل للأبناء معيشتهم ونموهم وتفتحهم الكامل ، فى الوقت الذى يتعين عليهم فيه ضمان حسن سير العمل فى المزرعة . ويستتبع الامر فى تلك الحاله أن تقييم الأبناء لايتم فقط فى ضوء القيمة التى يمثلونها كعمال . ذا يعد مولد الطفل فى الأسرة التقليدية أمرا هاما يتصل بمستقبل المزرعة واستمرارها . وأما فى المناطق التى جرى العرف فيها على أن يتولى الابن الأكبر بعد أبيه مسئولية المزرعة ، فان الأمر يبدو مختلفا . اذ أن هذا

الابن لابد ان يكون على دراية بكافة شئون الأسرة وان يتحمل النصيب الاكبر في اتخاذ القرارات حول المسائل التى تتصل بالأسرة والمزرعة . وتختلف العادات التى تحكم عملية الميراث من قطر الى قطر ، ومن منطقة الى منطقة ، ولكن القاعدة فى الأسرة القروية التقليدية أن وضع الأبناء يتحدد وفقا لمصالح المزراعة .

وحول هذا المعنى يقفز الى اذهاننا تساؤل فيما يتصل بمعدل الانجاب . فقد دلت البيانات الاحصائية على ارتفاع معدل المواليد لدى الأسر الغنية — او على نحو أكثر تحديدا — لدى الأسر التى تمتلك مساحات اكبر من الأرض الزراعية . وهناك تفسيرات عديدة لهذه الظاهرة — كالزواج المبكر (١٥) ، وخصوبة النساء .. الخ . الا أنه لم يتأكد بعد صدق اى من هذه الفروض . ويبدو أن هذه الظاهرة (على الرغم من انها فى سبيلها الى الانقراض ، كما هو متوقع لها) تخالف وجهة النظر الشائعة حول الارتباط بين الثروة ومعدل الانجاب اذ نجد على مستوى المجتمع الكبير أن معدل الانجاب يقل لدى الفئات السكانية الأكثر ثراء . الا أن الفلاحة (The peasantry) على كل حال ، تبدو على انها استثناء لتلك القاعدة . ومنذ اصبح مستوى الدخل يرتبط بالتقسيم الطبقى ارتباطا وثيقا ، فانه يعتقد أن اختلاف معدلات المواليد يمكن ان يبدو بشكل أوضح فيما بين الطبقات عنه بين جماعات الدخل .

ولو أن الملاحظ على اى حال انه بالنسبة للطبقات التى تمثل كيانات ثقافية متميزة ، فان اعتماد معدل الانجاب على مستوى الدخل يمكن ان يختلف عن الوضع السائد فى باقى المجتمع . بل انه يمكن ان يتخذ فى الجماعات الاجتماعية التقليدية اتجاها معاكسا للاتجاه السائد فى بقية المجتمع . وبغض النظر عن الخوض فى التفاصيل حول معدلات الانجاب وتفسير الفروق بينها ، فان هناك نقطة هامة تستحق العناية ، وهى العلاقة بين حجم المزرعة وحجم الأسرة . وان اى محاولة لاضعاف تلك العلاقة انما تتم بشكل يتناغم مع انماط التغير التى تحدث فى المجتمعات الريفية فى الوقت الحاضر .

٣ — ولقد ذكرنا فيما سبق ان الأسرة القروية فى مناطق عديدة من بولندا مازالت تحتفظ بملامحها الابوية حتى يومنا هذا . وان سمة الأبوية هذه

تتفق مع طبيعة الوظائف التى تؤديها الأسرة . فالأبناء باعتبارهم فريقا للانتاج ، يخضعون لسلطه الأب . فهو الذى يصدر القرارات الخاصة بشئون المزرعة (١٦) ، وهو الذى يحدد المهام التى يجب على الأبناء أن يقوموا بها ، وكيف ومتى يقومون . وهو يستمد سلطته لا من مجرد انه مسئول عن ادارة المزرعة فحسب ، وانما من كونه مالكها أيضا . فالأب (او الأم بعد وفاته) ، هو الذى يحدد المهور للأبناء ، وهو الذى يقرر انتقال المزرعة اليهم ، وقبل ذلك كله ، فانه هو الذى يتخذ القرار فيما يتصل بأى تغيير يطرأ على حجم المزرعة وانتاجيتها . ان الشروط الاقتصادية للمزرعة تجعل تماسك الأسرة أمرا ضروريا ، كما انها تحدد مختلف وظائفها الانتاجية — التى تتناسب مع تدرج أوضاع الأفراد — والطريقة التى تتبع فى توزيع الدخل والتصرف فيه . ولذلك فان تفكك الأسرة القروية يساوى تماما تفكك المزرعة وتدهورها ، ومن هنا نرى أن مشكلة التفكك العائلى التى تصادف الأسرة القروية ، تصبح امرا أكثر صعوبة وتعقيدا مما يحدث فى انماط الأسر الأخرى .

وفضلا عن الروابط التى تربط بين نسق العلاقات ، وتوزيع السلطة ، وطبيعة الأسرة القروية كوحدة انتاجية ، فمن الضرورى أن نأخذ فى الاعتبار أيضا العلاقة بين حجم المزرعة واطوار نمو الأسرة (١٧) . فهناك عدد من الأطوار التى يمكن تمييزها . الطور الأول هو الذى يبدأ بالزواج ، حيث يبدأ الزوجان حياتهم بامتلاك مزرعة صغيرة (وفى بعض البلدان تكون هذه المزرعة مستأجرة) . وفى هذه المرحلة لا تتوفر لها عادة كل مقومات ملكية هذه المزرعة . ولكن فتوتهما وعدم انشغال الزوجة نسبيا بأمور تربية الأطفال يتيح لها الفرصة للمشاركة الايجابية فى العمل بالمزرعة ، وعلى ذلك فانه يصبح بالامكان زيادة حجم المزرعة شيئا فشيئا . ولكنها تزداد أكثر واكثر بمجيء الأطفال خلال الطور الثانى من أطوار نمو الأسرة . فحاجة الأسرة الى الدعم يحتم على الزوجين مضاعفة الجهد ، ويمكن للأطفال فى هذه المرحلة أن يشاركوا فى العمل مشاركة تزداد بمرور السنين . وتبلغ المزرعة قمة تدهورها خلال الطور الثالث ، حيث يكون الأبناء قد بلغوا من العمر سنا يمكنهم عنده أن يكونوا عمالا منتجين ولم يتزوج أحد منهم بعد .

وفى الطور الرابع يصبح الأولاد مستقلين . وهنا يبدأ حجم المزرعة فى التناقص نظرا لتقدم الوالدين فى السن وضعف مقدرتهما على المشاركة فى العمل من جهة ، ولرحيل الأولاد عن الأسرة من جهة أخرى وحتى لو لم يتم تقسيم المزرعة على الأبناء ، فان ضرورة دفع مبالغ الى الأولاد تستلزم بيع جزء منها . وينقص حجم المزرعة حيث لا يتبقى منها الا جزء صغير يحتفظ به الوالدان لكى يعيشا عليه . وحتى لو أقام الوالدان مع أحد أبنائهما أو بناتهما فان حجم المزرعة يصبح أقل من حجمها فى البداية . ولقد أكدت الاحصاءات وجود علاقة بين حجم المزرعة وبين عمر رئيس الأسرة التى تعيش على هذه المزرعة . وفى العائلة التى تضم أجيالا ثلاثة (والتى لاتزال موجودة حتى اليوم فى مناطق ريفية ببلدان معينة كايطاليا مثلا) ، نجد أن الأطوار التى ذكرناها هنا تنطبق عليها كذلك ، غير انها تستغرق فترة أطول من الوقت ، وتتم بشكل أكثر تعقيدا . الا ان ذلك لايستدعى اجراء تعديل حول الملاحظات التى أمكن استخلاصها حول هذا الموضوع .

٤ ــ يتحدد نظام التربية فى الأسرة القروية من خلال نمط الانتاج . فالطفل فى الأسرة القروية يتعلم من خلال العمل الذى يؤديه . وكلما تدرج الطفل فى النضج ، فانه يكلف بأداء انواع من العمل تتطلب قدرا من الجهد والمسئولية ، بما يتناسب طبعا مع كونه ذكرا أو كونها انثى . وتدرج الطفل فى الأعمال التى يقوم بها يعتبر دليلا على نضجه ، ومؤشرا على الوضع الذى يشغله داخل الأسرة ، والمرحلة التى وصل اليها من مراحل النضج الاجتماعى ويكتسب الطفل بذلك خبرة انتاجية ، وانماطا من السلوك ، فضلا عن اكتسابه معايير خلقية ، فهو يتعلم مايجب عليه أن يفعله ، كما يعرف وضعه بالنسبة لمجتمعه المحلى . وعندما يصل الى سن النضج ويصبح قادرا على المشاركة الفعالة فى عملية الانتاج فانه يستطيع أن يحتل مكانه فى القرية ، وأن يكتسب معرفة بالعالم الخارجى . وتنعكس عملية التعليم التى تتم من خلال اكتساب مزيد من الكفاءة والمشاركة فى الانتاج فى عدد من الطقوس العائلية المقابلة . وعلى ذلك فاننا نجد أن الأسرة القروية تربط ربطا قويا بين النضج البيولوجى والاجتماعى للفرد وبين نضجة كمنتج . فالنضج البيولوجى هو الأساس ، ولكن انخراط الطفل فى أعمال معينة يشترط للقيام

بها سنا معينا ودرجة معينة من القوة ، يحدد وضعه داخل الأسرة وداخل المجتمع المحلى القروى (١٨) .

٥ ـــ ويتحقق استقلال الأبناء عن الأسرة اما عن طريق الزواج والانتقال الى مزارعهم الخاصة (وفى نمط الاسرة ذات الأجيال الثلاثة لا يتحقق ذلك بالضرورة ، ولكنه يحدث عندما يتوفى الأب) ، او عن طريق مغادرة الأسرة والقرية للاشتغال فى مهنة اخرى غير زراعية او فى مشروع زراعى كبير .

وقد جرت العادة على تقسيم المزرعة وتوزيعها على الأبناء ، او ان تؤول ملكيتها الى احدهم على أن يدفع لاخوته واخواته ثمن انصبتهم منها . كما أن العادة قد جرت ايضا على تحديد من يظل من الأبناء داخل المزرعة ومن يغادرها بسبب الزواج وبدء الحياة فى مزرعة خاصة ، او الاشتغال بمهنة اخرى . وتهدف نظم الميراث ، حتى تلك التى تنص على تقسيم المزرعة بين الأبناء ، الى الاحتفاظ بها موحدة او الحيلولة دون الانتقاص منها بقدر الامكان . ويعمل الابن الذى يبقى بالمزرعة فى أرض اخوته واخواته حتى يتزوج ، وان كان متزوجا فانه يعمل فى هذه الأرض حتى يسدد لهم حقوقهم فى نظير هذه الأرض . ويظل هذا الابن مشتركا مع والديه فى ادارة شئون المزرعة لفترة من الوقت ، حتى ينجب أطفالا ، وهنا فان والديه يعتزلان العمل ويتركان له المزرعة على ان يخصص لهما راتبا معلوما ، أو يقتطعا منها جزءا لهما لكى يعيشا عليه . وعندما تكون امكانية الخروج من القرية ومغادرتها قليلة ، فان الغيرة تدب بين الاخوة ، ويصبح كل منهم نهما وراغبا فى التملك . وفى حالات معينة (كما يحدث فى المناطق التى لايسمح فيها بتقسيم المزرعة) يخرج الاخوة والاخوات للبحث عن عمل آخر خارج المزرعة اذا كان بقاؤهم فيها لايساعدهم على الزواج وتكوين أسر مستقلة (١٩)

ويعتبر تقسيم المزرعة دائما اسوا الحلول الممكنة ، وحتى فى المناطق التى يسمح فيها بتقسيم المزرعة ، تزداد المخاوف من تقسيم الأرض وتفتيتها أو البقاء فى مساحات تزمية من الأرض لاتكفى للحياة الكريمة . وتعتبر هذه من العوامل التى تثير الرغبة فى الهجرة من القرية الى المدينة ، او من المناطق التى تقل فيها فرص الحصول على الأرض الزراعية الى مناطق زراعية

اخرى فيها متسع من الأرض . وفى مثل هذه الأحوال تتحدد اتجاهات الأبناء نحو المستقبل فى ضوء مصلحة الأسرة ومصلحة المزرعة ، وما اذا كانوا سيستمرون فى اتخاذ العمل الزراعى مهنة لهم أم سيتركون الأسرة ويغادرون القرية .

ويختلف الوضع بالنسبة للمجتمعات التى تنمو فيها باضطراد فرص العمل خارج القرية وبعيدا عن مجال العمل الزراعى (وخاصة عندما يكون للمدينة جاذبية شديدة) . ففى هذا الوضع تكون المنافسة على أشدها حول الخروج من القرية وليس البقاء فيها . ومن القواعد المتبعة فى مثل هذه الظروف ، أن الأسرة تسمح لمن تأنس فيهم القدرة على النجاح خارجها من الأفراد بالرحيل . وعلى كل حال ، فان المزرعة لا تترك دون خليفة (٢٠) او وريث طالما أن بها أبناء . ويبدو ولاء الأفراد للأسرة القروية واضحا وقويا ، فقد أوضحت البحوث والدراسات هذه الحقيقة ، كما أن ولاءهم هذا يدفعهم دائما الى البقاء داخل المزرعة حتى ولو كانوا غير راغبين فى العمل الزراعى ويفضلون عليه عملا آخر (٢١) . غير أن الأمر يبدو مختلفا بالنسبة للمزرعة متعددة الأسر (نظام التعاونيات الانتاجية) حيث يكون شعور الأفراد بالمسئولية حيال الأسرة والمزرعة شعورا ضعيفا ، وحيث تكون الرغبة فى الارث والتملك رغبة محدودة التأثير (٢٢) . ففى مثل تلك الأحوال نجد الأجيال الشابة من الأبناء ينظرون الى العمل فى المزرعة كمهنة يتعيشون منها ، واذا لم توجد قيود ادارية معينة تقيد حركتهم ، فانهم يتجهون دائما الى ترك العمل الزراعى .

ان الروابط التى تربط الأبناء الصغار بالأسرة القروية لاتزال قوية جدا حتى اليوم ، كما أن الأسرة القروية لاتزال تقرر مصير الابن . ولذلك فالقاعدة العامة التى تحكم مهنة الفلاحة هى أن يتوارثها الفلاحون جيلا بعد جيل . وتلك السمة المميزة وغيرها من السمات ، انما هى نتيجة مترتبة على طبيعة الحياة القروية .

ان الظاهرة التى تناولناها بالوصف على نحو ما سبق — ابتداء من تكوين الأسرة وحتى اعتزال الوالدين وحصولهما على مرتب معلوم — تختلف

باختلاف المجتمعات والمناطق ، كما انها تعتمد على خط الأسرة ، وشكل الميراث ومدى تدخل الدولة ، والقواعد القانونية ، وتأثير المجتمع الصناعى على القرية ، ... الخ . وعلى الرغم من وجود المزارع متعددة الأسر ذات الطبيعية المتميزة (أعنى التعاونيات الزراعية) ، فانه حتى مثل هذه الحالات ، تعتبر الروابط التى تربط الأسرة بالمزرعة هى السمة المميزة لنمط الأسرة القروية ، والتى تميزها عن غيرها من الأنماط الأسرية الأخرى . ولو أن الخصائص الواردة هنا تنطبق أساسا على الأسرة القروية التقليدية . ومع ذلك ، فقد حدثت فى الوقت الحاضر عدة تغيرات واضحة ، على نحو مارأينا . غير أننا يجب أن نأخذ الاطار العام للملامح الأسرة التقليدية فى الاعتبار عندما نتناول هذه التغيرات بالدراسة والملاحظة .

رابعا : التغيرات التى طرأت على اشكال الأسرة القروية الحديثة

يتفق السوسيولوجيون المعنيون بدراسة الأسرة على تشخيص أنماط التغير فى الأسرة الحديثة (٢٣) . الا أن وجه الاختلاف الوحيد فيما بينهم حيال هذا الموضوع هو مدى تقييمهم لهذه التغيرات : وما اذا كانت علامة من علامات انحلال الأسرة ، أم أنها لاتتجاوز حدود التغير فى مكوناتها ووظائفها (٢٤) . ولكن علينا أن ندع مسألة التقييم هذه للمتخصصين ، لأن ما يعنينا فى هذا السياق هو القاء الضوء على الاتجاهات العامة للتغير التى يتفق عليها الدارسون الى حد بعيد .

ثمة اتفاق حول تحول الأسرة من الشكل الذى يضم ثلاثة أجيال الى الشكل البسيط الذى يتألف من الوالدين والأطفال . وفى المناطق الحضرية، لايتيم الأبناء المتزوجون مع والديهم الا فى حالات استثنائية ، ولوحدث ذلكفانه يكون بسبب ظروف تمليها مصالح الأبناء انفسهم . فالقاعدة هى ان الأبناءعندما يتزوجون ، وربما قبل ذلك ، عندما يمتلكون زمام أمورهم ، فانهم ينتقلون الى الاقامة فى مساكن خاصة بهم . الا أن مشكلات الاسكان ، والحاجة الى الزواج بامراة عاملة ، تعتبر من العوامل التى تؤجل عملية انتقال الأبناء الى مساكنهم الجديدة . ومع ذلك ، فان تطلع الأبناء الى الحصول على مسكن مستقل يكون قويا للغاية ، ولا يلبث ان يتحقق بمجرد أن تتوفر لديهم الامكانيات المادية التى تساعدهم على ذلك .

ولا يرجع صغر حجم الأسرة الحديثة الى انخفاض عدد الأجيال التى تعيش سويا بداخلها فحسب ، وانما يعتبر الى جانب ذلك نتيجة من نتائج تنظيم النسل . كما أن الاجراءات الصحية الوقائية المتطورة ، والخدمات الصحية ، قد عملت على انخفاض معدلات الوفيات بين الأطفال بشكل ملحوظ . ولم يعد مجيء طفل جديد أمرا عشوائيا فى اغلب الاحوال ولكنه يأتى فى الغالب مطلوبا ومتوقعا .

وتتفق التغيرات التى طرأت على حجم الأسرة ، والاتجاه نحو الأطفال والعناية بترابيتهم ، تتفق مع التغير فى أهداف الزواج ، التى أصبحت تتمثل عادة فى الوقت الحاضر ، فى الحصول على السعادة الشخصية . ولم تعد مصالح الأسرة هى الدافع وراء الزواج ، وانما مصالح الفرد ورغبته فى الحصول على الدعم الأخلاقى والعاطفى الذى يؤمنه ويقيه من العزلة فى مجتمع تسود فيه روح الفردية . وقد أدى ذلك الى حدوث تغير فى الأسس التى يقوم عليها الاختيار للزواج ، حيث أصبح الاختيار فى الغالب يتم على أساس من الحب والجاذبية المتبادلة . ولقد أصبح « الاختيار الرومانتيكى » شائعا وممثلا لقيمة هامة ومرغوبة (٢٥) كما أن ازدياد العنصر الرومانسى فى الزواج يتفق مع التغيرات التى طرأت على نمط العلاقة بين الزوجين . ولقد أصبح النمط الشائع من الأسرة هو الذى يقوم على اقرار المساواة بين الزوجين (وبينهما وبين الأطفال أيضا بعد ذلك) فى الحقوق من أجل الحصول على السعادة الشخصية ، والمساواة بينهم فى المشاركة فى اتخاذ القرارات التى تتصل بتقرير مصيرهم المشترك . ويعتبر ذلك أيضا من نتائج الاستقلال الاقتصادى للمرأة ، التى أصبحت فى الوقت الحاضر تحصل على فرص متزايدة فى ممارسة حياة مهنية مستقلة .

ولقد أدت تلك التغيرات ، وخصوصا دخول المرأة فى ميدان العمل ، الى حدوث نقص فى النشاطات التى تقوم بها الأسرة كوحدة اقتصادية . فلقد أصبحت أعباء العمل المنزلى مسئولية مشتركة بين الزوجين ، كما أن النمو الملحوظ فى عدد المقاهى ، والمطاعم ، ومرافق الخدمات ، وانتشار التكنولوجيا ووسائل المنزل الحديث ، قد حد من اتساع النشاطات المنزلية .

ولقد حلت المدرسة وغيرها من المؤسسات التربوية الأخرى محل الأسرة ، حيث اخذت تتولى عنها مهمة اداء الوظيفة التربوية الى حد بعيد . الا انه فى المجالات التى لاتزال فيها الأسرة تشارك فى تربية الأطفال ، فان الأسرةتؤدى هذا الدور بشكل اكثر فعالية عن ذى قبل . وينحصر دورها الرئيس فى تلك الحالة فى تكملة عملية التعليم الرسمية التى يتلقاها الأطفال فى المدرسة والتى تتم من خلال حشو المعلومات الموجودة فى الكتب فى اذهان التلاميذ) وذلك بتقديم الدعم العاطفى اليهم . وبذلك فان الأسرة تعمل على اعـداد الأبناء الصغار لكى يعيشوا فى المجتمع المحلى حياتهم الحقيقية . وفضـلا عن ذلك ، فان الأسرة تهيء للطفل ، فى حدود امكانياته ، الوضع الاجتماعى الذى يمكنه أن يستهل به حياته عندما يصبح مستقلا . وبطبيعة الحال فان الأوضاع الاجتمـاعية ترتبط بالتنظيم الاجتمـاعى للمجتمع ، ونظام التدرج الاجتماعى ، وخصوصا ما اذا كان ذلك يحدث فى ظل نظام اشتراكى أو نظام راسمالى . وعلى العموم فان دور الأسرة فى تأمين مستقبل الأبناء ، هو دور لايمكن انكاره فى كلا النظامين .

ولقد تغيرت ايضا وظيفة الأسرة فى عملية « التأمين » . فلقد اصبح التأمين الاجتماعى الذى اتخـذ شكلا واسـع النطاق ، يهيىء للناس ، وخصوصا الكهول والمسنين منهم ، سبل المعيشة المستقلة تحت اى ظرف من الظروف . كما أن الوظائف « التأمينية » للأسرة قد اخذت الى حد كبير تتسم بطبيعة عاطفية ومعنوية .

اما الانشطة الثقافية للأسرة الحديثة فانها لم تتناقص وانما قد اخذت شكلا متغيرا فى بعض جوانبها . وفى الحقيقة ، أن وجود المراكز الثقافيـة المتخصصة (كدور السينما ، والمقاهى ، والنوادى ، والمسارح ، وأماكن التسليه) قد حد من الدور الثقافى للأسرة . ومع ذلك ، فان التليفزيون بما له من قيمة كبيرة فى المجتمع الحديث ، وعلاقات الصداقة والعلاقات مع الاقارب البعيدين ، فضلا عن وسائل الاتصال الجمعى ، من العوامـل التى تحفظ على الأسرة دورها الثقافى ، على الرغم من اختلاف هذه العوامل من حيث مجالها ومضمونها .

ان التغيرات التى طرأت على نمط الأسرة الحديثة ، كانت من الاسباب وراء ضعف التماسك فى هذه الأسرة . فلقد أصبحت السعادة الشخصية هى القيمة المنشودة ، ولا تلبث الأسرة أن تفقد تكاملها (الفعلى أو الرسمى) عندما يقرر الأفراد انهم لايرغبون فى الاستمرار كأعضاء بداخلها كما أن أعداد حالات الانفصال والطلاق آخذه فى الازدياد باضطراد وتعتبر الزيادة فى وقوع حالات الطلاق مؤسرا دالا على تطور العلاقات العاطفية التى تربط بين الزوجين ، وهى من هذه الناحية تمثل جزءا صغيرا من التغيرات الاجتماعية الشاملة التى تحدث على نطاق واسع فى عالم اليوم .

وتظهر التغيرات التى أحاطت بالنمط الجديد للأسرة ، فى كل المجتمعات كما أن هذه التغيرات تتم بدرجات متفاوته ، أى انها تحدث بصورة نسبية ، وطبقا لتقدم الأحوال الحضارية العامة فى البلاد والمجتمعات المختلفة . وثمة اختلافات كبيرة بين الأسر القروية والأنماط الاخرى من الأسر الموجودة فى مختلف البيئات والجماعات الاجتماعية . كما أن النمط الحديث للأسرة — الذى يقوم على المساواة والذى يتسم بالوظائف الاقتصادية المحدودة ، والمضامين الثقافية والتربوية المتغيرة — يعتبر اكثر ملاءمة للمجتمع الصناعى . ونجد فى مختلف العصور ، أن الأنماط الحضرية هى التى تسيطر دائما على التنظيم المهنى للمجتمع ككل . ولكن الأسرة القروية فى الوقت الحاضر اخذت هى الأخرى تتطلع الى أن تصبح على غرار ذلك النمط الحضرى وتتكيف معه . والى جانب الدور المسيطر للتنظيم المهنى الصناعى فى عملية الانتاج ، نجد أن النسق الصناعى للحياة الاجتماعية وما نجم عنه من قيم وانماط أخذت هى الأخرى تسيطر على ملامح المجتمع الحديث . وقد استطاعت هذه الأنساق القيمية أن تنفذ الى الحياة القروية من خلال كافة السبل الممكنة : عبر وسائل الاتصال الجماهيرى ، ومن خلال اتصال الأفراد القرويين بالمدن ومن خلال الاتصالات التى تتم بين كل اسرة قروية ، واقاربها الموجودين فى المناطق الحضرية . فلقد أخذت هذه الأنماط الحضرية تظهر فى القرية كمظهر من المظاهر التى يعبر بها القرويون عن توافقهم مع ظروف المجتمع الحديث .

وتتفق اتجاهات التغير فى الأسر القروية مع اتجاهات التغير فى المجتمع بوجه عام . ولكن وجه الاختلاف الذى يمكن ملاحظته يتمثل فى الدرجة التى تحدث بها هذه التغيرات ، نظرا لأن امكانيات التغير فى الحياة القروية والعمل الزراعى هى امكانيات محدوده فى الحقيقة . ويمكن الوقوف على اتجاهات التغير حينما نلاحظ أن بعض الظواهر التى تحدث فى القرية ، هى نفس الظواهر التى تحدث اليوم فى المدن . يضاف الى ذلك أن مبدأ « الرومانسية » قد أخذ يحكم عملية اختيار القرين فى كل من مجتمعى القرية والمدينة (٢٧) . ولقد أخذ الشبان فى القرية يتطلعون ويطمعون فى أن يكون شكل الأسرة الذى يتوقعونه مطابقا لنمط الأسرة الحضرية (٢٨) . وعلى كل حال ، فقد دلت التحليلات الاحصائية (٢٩) على أن هذه المطامح لايمكن أن تتحقق الا حينما يترك هؤلاء الشبان حياة الأسرة الريفية وحياة المزرعة ويغادرون القرية . ولو ظل الفتى أو الفتاة داخل القرية ، فان عملية اختيار القرين تتم فى حقيقة الأمر على أساس أن حجم المزرعة لايزال هو المبدأ الذى يحكم عملية الاختيار (٣٠) ولكن على الرغم من أن هذا المبدأ لم يعد يطبق بصرامة من جانب الوالدين ، وبالرغم من أنهما قد أخذا يمنحان الأبناء حريتهما فى اختيار القرين ، فان دائرة العلاقات والاتصالات لاتزال محكومة بالتدرج الثابت للمكانات الاجتماعية فى القرية ، ويمثل ذلك ظاهرة غير صحية أمام الأبناء حينما يكونون بصدد الاختيار الفعلى لشريك حياتهم الزوجية . وأكثر من ذلك ، فان الوالدين عندما يطلب منهما ابداء رأيهما فى موضوع زواج الابناء ، فانهما يوضحان أن الحرية مكفولة لأبنائهم ليختاروا هم بأنفسهم ، بشرط أن يكون اختيارهم محكوما بمصالح الأسرة ومصالح المزرعة ، ومناسبا لطبيعة الأحوال التى يفرضها العمل الزراعى . فمثل تلك الاعتبارات لم تعد تجعل الأبناء يقبلون التخلى عن رغباتهم الشخصية . ولاتزال الاعتبارات الاقتصادية تحتل جانبا من أفكار الأبناء عندما يضعون خططهم للزواج ، على الرغم من أن « الاختيار الرومانسى » قد أصبح يمثل قيمة كبرى ، كما أن الأنماط التقليدية لاتزال تؤثر تأثيرا قويا على السلوك الحقيقى للأبناء فى المناطق الريفية .

ومن المجالات الأخرى التى يتخذ فيها القرار بواسطة الأبناء أنفسهم وليس بواسطة الأسرة ، قرار اختيار المهنة . وعلى الرغم من أن هذه القيمة

أصبح معترفا بها داخل الأسر القروية فى الوقت الحاضر ، فان التزام الأبناء جيال الأسرة والمزرعة مازال يؤثر تأثيرا واضحا فى سلوكهم واتجاهاتهم نحو الاستقلال . وهناك الكثير من الشباب الذين يرغبون فى ترك حياة المزرعة والحصول على مهنة أخرى تمكنهم من تأمين مستقبلهم (٣١) . ومع ذلك فانهم يظلون باقين بالمزرعة . اذ انه لايمكن أن تبقى المزارع دون من يديرها ويتوارثها . ومازالت الوظائف الثقافية للأسرة القروية أقل تحديدا منظائرها عند الأسرة الحضرية . ففى المدن اخذت بعض الهيئات تضطلع بالوظائف الثقافية ، وهى توجد بدرجة كثيفة فى المدن ، الا انها مازالت أقل كثاف فى القرى . فانتشار الراديو ، والصحف ، والتليفزيون ، وغير ذلك من الوسائل التى يتعرض لها الحضريون كثيرا كالسينما ، كل ذلك قد اضعف من الوظائف الثقافية للأسرة . ولم تستطع هذه المؤسسات الثقافية أن تقضى على وظائف الأسرة فى هذا الشأن أو أن تحل محلها بالقدر المطلوب .

ولقد طرأت تغيرات أساسية على نمط العلاقات داخل الأسرة القروية كذلك . فالأسرة الأبويه البحتة الصارمة آخذة فى الاندثار . وقد بدأت الفردية تميز اتجاهات الأعضاء فى الأسرة القروية كذلك . وأصبح الأبناء يعبرون عن رغبتهم دائما فى المشاركة فى اتخاذ القرارات التى تتصل بالأسرة ، أو على الأقل ضمان تحقيق رغباتهم بما يتمشى مع القيم الخاصة بهم (٣٢) . كما أصبح الأبناء المتزوجون يصدرون بانفسهم الكثير من القرارات ، وأصبح الأبناء الكبار يشاركون بدرجة اكبر فى اتخاذ القرارات التى تتصل بالأسرة والمزرعة .

كما أن الوظائف التربوية التى تؤديها الأسرة القروية قد طرأت عليها أيضا تغيرات أساسية . فهناك اهتمام كبير بتحقيق الرفاهية للأبناء ، كما أن الأبناء الصغار الذين يتلقون تعليمهم بالمدارس قد أخذوا يتخففون من أعباء العمل بالمزرعة ، وان كانوا يقومون ببعض الأعمال الخفيفة التى تختلف عما كان يؤديه الأبناء فى الماضى أثناء تعليمهم الذى يرتكز على العمل فى المزرعة . وفيما يتصل بسلطة الأب ، الذى يعتبر مسئولا عن ادارة المزرعة ، فانه لايمكن تقييدها ، ذلك أن الوظائف الانتاجية للأسرة القروية ككل لا يمكن

أن تقل او تضعف والا ستكون النتيجة هى اهمال المزرعة التى تعتبر المقوم الاساسى لوجود الأسرة وبقائها .

وتعتبر الوظائف الانتاجية التى تقوم بها الأسرة القروية ، هى السبب الحاسم فى بطء عملية التغير التى تطرأ على نمط الأسرة . فالميل الى أن تحمل المزرعة باستمرار ملامح المشروع الانتاجى (٣٣) يتعارض دائما مع المطامح الجديدة لأفراد الأسرة . اذ أن نمو هذا المشروع يتطلب بالضرورة أن يكون هذا النمو مصحوبا بنمو مماثل فى القوى العاملة والتجهيزات اللازمة للمشروع . غير أن الحاجة الى اجراء تقييم لتلك الجوانب الاقتصادية على هذا المستوى قد أخذت هى الأخرى تتزايد ، على الرغم من أن امكانية تطبيق الكثير منها على مستوى المزرعة الصغيرة لايزال محدودا . واكثر من ذلك ، فان الميكنة الزراعة لم تعمل على تخفيف عبء العمل عن كاهل الأسرة ، بل انها قد عملت فقط على تنظيم العمل وتحويل الجهد البشرى الى بعض القطاعات التى لايمكن أن تستغنى عن العمالة البشرية . وباختصار ، فان ملامح المشروع التجارى التى أخذت تزداد بالنسبة للمزرعة تتناقض مع الأنماط العامة للتغير فى الأسرة القروية الحديثة . فبدلا من تناقص الوظائف الاقتصادية للأسرة ، ازدادت هذه الوظائف نموا ، كما ازدادت التطلعات الى توسيع مجال الوظائف الثقافية والتربوية ، .. الخ ، ولكن ذلك يواجه بصعوبات كثيرة . ولقد اصبح الدعم العاطفى الذى يقدم من خلال الأسرة أمرا ثانويا بالنسبة للاعتبارات الاقتصادية . ولذلك نجد ان المتطلبات الاقتصادية للمشروع اصبحت تفرض نمطا معينا من الأسرة لم يعد بعد قادرا على الوفاء بمطامح الأفراد وتطلعاتهم . ونتيجة لذلك ، فان نمط الأسرة القروية الحديثة قد اتخذ شكلا يتسم بالافتقار الى الانسجام . ، كنتيجة لوجود نزعتين متناقضتين تحدث الواحدة منهما بمصاحبة الأخرى ، وهما : الازدياد الملحوظ والمسيطر فى تطلعات الأفراد ، تلك التطلعات التى تتخذ من نمط الحياة الحضرية نموذجا لها ، هذا من جهة ومن جهة اخرى ، أنماط السلوك التى تفرضها طبيعة الحياة القروية والعمل الزراعى (٣٤) . وفضلا عن ذلك ، فان نمو المجتمع الصناعى يعمل بدوره على تعميق ذلك الصراع ، وذلك فى ضوء الزعم القائل بأن تكيف الأسر القروية وتوافقها مع حياة المجتمع الصناعى سوف ينمو من خلال الأشكال الصناعية التى بدأت تميز أنماط الانتاج ومنها العمل الزراعى نفسه .

الحواشى والمـراجع

1— J. Szczepanski, Sociology : the development of its - Subject matter and methods, Warsaw, 1961.

2— G.P. Murdock, Social Structure, New York, 1949.

3— E. g. in Dictionary of Sociology, ed. H. Pratt Fairchild, New York, 1943, p. 111.

4— For a definition and broader discussion of the types and Functions of the family See, for example, J. Szczepanski. Elementarne pojecia Sociologii, op. cit., p. 149.

(٥) أحيانا تستعمل كلمة « العائلة » فى لغة الحياة اليـومية لكى نشـير الى الأقارب البعيدين .

6 — Statistical year book, 1962, p. 30, table 15.

7— E.M. Rogers, Social change in rural Society, p. 366.

8— F. Znaniecki, The Sociologocal bases of human ecology, (The Juridical, Economic and sociological Movement), 1938, No. 1

9— M. Jarosinka, the social milieu outside the factory, Sociological Studies, 1964, No. 1.

10— Statistical yearbook, op. cit., p. 31, table 16.

11— J. chalasinski, Mlode pokolenie chlopow, op. cit., p. 133.

12— B. Galeski, Sociological problems of farming as an occupation, Annals of Rural Sociology, Vol. 1, 1964.

13— P. Bourdieu, Celibacy and the peasantry, Etudes rurales, 1962, Nos. 5 - 6, p. 32.

14— W.L. Thomas and F. Znaniecki, The Polish peasant in Europe and America, N.Y., 1927, p. 169; J. Chalasinski, op. cit., p. 154.

15— W. Stys, the Contemporary development of the peasant Family and peasant farming, Wroclaw, 1959.

16— The IER questionnaire of 1960 on the modernization of agriculture showed that in principle the farm owner decides on the introduction of improvements in the farm without consulting the rest of the family.

17— T. Lynn, Sociology of rural life, New York, 1953, pp. 79, 411 ff.

18— J. Chalasinski, op. cit., p. 125.

19— W. G. Hoffman, On the dynamics of the industrial Company economic — Sociological observations : Contributions to the Sociology of the industrial Company, Dortmund, 1952, p. 7.

20— M. Pohoski, Migration from village to town, Warsaw, 1963, p. 168.

21— A. Sianko, Young farmers on their occupation, The contemporary village, 1960, No. 4.

22— In personal accounts sent in to a ZMW (Rural Youth-Union) Competition announced in 1963, young people frequently expressed themselves quite willing to live in production Cooperatives, but only because they were convinced that it would be easier for them to leave the village, as their obligations to the family and farm would be taken over by Cooperative.

23— R.H. McIver and C. Page, Society, London, 1961, pp. 250 ff.

24— R. Koenig, Materials for a sociology of the family, Berne, 1946.

25— J. Chalasinski, American Culture, Warsaw, 1962.

26— Personal Statements sent in for the ZMW competition, e.g. those by women, Nos. 2951, 3069, 3571 and 4688 and others.

27— Z.T. Wiersbicki, Zmiaca fifty years laters the formation of the integrative-expressive function of the village famliy, Roczniki Sociologii wsi, vol. 11, 1964, p. 82.

28— E. Jagiello-Lysiowa, What young people dream of wies wspolczesna, 1959, No. 12, p. 89.

28— Research carried out by the IER Workshop on Rural-Social Structure, e.g. B. Galeski observations on social differentiation among the peasant Stratum, Wies wspolczesan, 1958, No. 1, p. 32.; J. Przychodzen, Territorial and social choice of rural marriage partners, Roczniki Sociologii wsi, Vol, 11, 1964.

30— A. Olszewska-Ladykowa Zygulski, Mixed Marriages in Opolean Silecia; Sociological Review, Vol. XII, 1959.

31— A. Sianko, Problems of occupational choice in the diaries of young village inhabitants, Roczniki Sociologii wsi, Vol, I, 1963, p. 97.

32— See No. 5303 in the ZMW Competition for diaries Kept by rural youth.

33— B. Galeski, Sociological problems of farming as an occupation, Annals of Rural Sociology, Vol. I, 1964.

34— D. Markowska, Patterns of change in the contemporary peasant family, Vol, 2, Warsaw, 1965, pp. 57-81.